﴿*قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء: 50 - 52]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

الردُّ على شُبُهات مُنكِري البعثِ

لـمّا جرت عادة القرآن بإثبات المعاد بالحُجج الدَّامغة، واستفهم الكفّار عن إمكانِ بعْثِهم مُنكرين ذلك بشبهةٍ تَحوُّل أجسادهم إلى عظامٍ مُفتَّتةٍ وترابٍ؛ أمر الله رسوله بأن يُجيبهم عن شُبهتهم بهذه الآياتِ المُقرِّرة للقدرة الإلهية على البدء والإعادة، فدفع الله سبحانه مَثَلهم هذا بمَثَلٍ هو أشدُّ إنكارًا عندهم للبعث[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِجَارَةً﴾: (حرج) أصل واحد مُطَّرد تدلُّ تصريفاته على المنع والإحاطة، والبابُ كلُّهُ محمول على الحَجَرِ المعروف، ومأخوذ منه؛ لشدَّته وصلابته[2]، وورد ذِكْرُ الحجارة في وقود جهنَّم بقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]، كما وصف الله بها قلوب الكفّار بقوله: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: 74][3]، ومعنى قوله ﷻ: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ على أنَّه جمْعُ حَجَرٍ، وهو الجوهر الصُّلب المعروف.

2) ﴿حَدِيدًا﴾: أصله (حدَّ)، والحاء والدّال أصلان؛ الأوّل: المنع،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 439، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 498.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجر).
(3) الراغب، المُفردات: (حجر).

والثاني: طَرَف الشّيء، فالحدُّ: الحاجز بين الشّيئَيْن، وفلان محدود؛ إذا كان ممنوعًا، وسُمِّي الحديد حديدًا لامتناعه وصلابته وشدَّته[1]، وحدَّدْتُ السِّكين: رقَّقت حَدَّه، ثمّ يُقال لكلِّ ما دقَّ في نفسه من حيث الخِلقة أو من حيث المعنى كالبصر والبصيرة: حديدٌ[2]، والحديد: الجوهر المعروف، سُمّي بذلك لأنَّه منيع؛ أيْ: صُلب[3]، وهو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

3) ﴿خَلْقًا﴾: (خلق) مِنَ الفِعْلِ خَلَقَ يَخْلُقُ خَلْقًا، والخاءُ واللّامُ والقافُ أَصْلانِ: أحدُهما تقديرُ الشَّيءِ، والآخَرُ ملاسَةُ الشَّيءِ، ومن ذلك: الخُلُقُ؛ وهي السَّجِيَّةُ؛ لأنَّ صاحبه قد قُدِّرَ عَلَيْه، وَأَمَّا الأَصْلُ الثّاني؛ فَصَخْرَةٌ خَلقاءُ؛ أيْ: مَلْساءُ، وَمِنْ هذا البابِ أَخْلَقَ الشَّيْءُ، وَخَلِقَ؛ إذا بَلِيَ[4]، والخَلْقُ المُراد في هذه الآية من الأصل الأوَّل، وهو مصدر يُراد به المخلوقُ[5] دون تعيين.

4) ﴿فَطَرَكُمْ﴾: أصلُهُ (فطر)، والفاء والطّاء والرّاء أصلٌ صحيح يدلُّ على فتح شيء وإبرازه، ومن ذلك الفِطْرَةُ: وهي الخِلْقَةُ[6]، وفَطَرَ اللّه الخلقَ بمعنى: إيجاده وإبداعه على هيئة مُترشِّحَةٍ لفعل من الأفعال[7]، وسائر ما في القرآن من مفردات التركيب - باستثناء معنى الشَّقِّ - هو بمعنى الخَلْق[8]؛ ومنه الآية الكريمة؛ أيْ: خَلَقَكم أوَّل مرَّةٍ.

5) ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾: أصلُه (نغض) رأسُهُ يَنْغَضُ ويَنْغِضُ نَغْضًا ونُغوضًا؛ أي: تحرَّك، والنّون والغَيْن والضّاد أصلٌ صحيح يدلُّ على هزٍّ وتحريكٍ[9]، وترجع اشتقاقات هذا الأصل إلى تحرُّك الشَّيء حركةً مختلفةً؛ لخِفَّته ورَخاوته، أو لضعف امتساكه واشتداده بأصله، كتحرُّكِ (السِّنِّ والرَّحل والكَتِفِ والرَّأس) حركةَ اهتزازٍ بقوَّةٍ، ومنه إنغاض الرَّأس الموصوف في هذه الآية: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾؛ أيْ: تحريكها تعجُّبًا واستبعادًا[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدّ).
(2) الراغب، المُفردات: (حدّ).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (حدد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(5) الرّاغب، المُفردات: (خلق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(7) الرّاغب، المُفردات: (فطر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (فطر).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نغض).
(10) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (نغض).

6) ﴿وَتَظُنُّونَ﴾: أصله (ظنّ)، والظّاء والنّون أصل صحيح يدلُّ على معنيَيْن مختلفيْن: يقين وشكٍّ[1]، وهو اسمٌ لما يحصل عن أمارة، ومتى قويتْ أدَّتْ إلى العلم، ومتى ضعفتْ جدًّا لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم[2].

والظنُّ في الأصل: قوَّة أحد الشّيئيّن على نقيضه في النّفس، والفرق بينه وبين الشّكِّ: أنَّ الشّكَّ هو التردُّد في أمريْن لا مَزيَّة لأحدهما على الآخر[3]، ويحتمل الظنُّ في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أن يكون الظَّنُّ على بابه من الشَّكِّ أنَّهم لم ينفصلوا عن الدُّنيا إلّا في زمنٍ قليلٍ؛ إذ كانوا في ظنِّهم نائمين، كما يحتمل أيضًا أن يكون هنا بمعنى اليقين، من حيث علموا أنَّ ذلك مُنقضٍ مُتصرِّمٌ[4].

7) ﴿لَّبِثْتُمْ﴾: (لبث) واللّام والباء والثّاء حرف يدلُّ على تَمَكُّثٍ، يُقال: لَبِثَ بالمكان: أقام[5]، وتدور اشتقاقاته حول ملازمةٍ للمكان ممتدَّةٍ، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: 25]، وليس في القرآن من التَّركيب إلا اللُّبث المكانيُّ أو الزَّمانيُّ[6]، واللُّبث المذكور في الآية: هو الإقامة لمدَّةٍ زمنيَّةٍ قليلةٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القادرُ على الخَلقِ أوَّلَ مرَّةٍ قادرٌ على الإعادة

عندما أنكر الكفّار أن يُخلقوا خلقًا جديدًا بعد أن تُبلى عظامهم وتصير فتاتًا، أَمَرَ الله رسوله الكريم أن يقول لهم على جهة الرَّدِّ على استبعادهم، والتَّحقير من شأنهم، والتَّعجيز لهم: كونوا حجارةً أو حديدًا في الشِّدَّة والقُوَّة، أو كونوا خلقًا يَعْظُم، ويُسْتَبْعَد في عقولكم قبوله، فسيقولون مُنكرين: مَن يردُّنا إلى الحياة بعد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظنَّ).
(2) الرّاغب، المُفردات: (ظنَّ).
(3) ابن الجَوْزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 424.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 65.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لبث).
(6) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (لبث).

الموت؟ قل لهم: يُعيدكم ويُرجعكم الله الذي أنشأكم من العدم أول مرَّة، فسيَهُزّون رؤوسهم ساخرين مُتعجِّبين، ويقولون مُستبعِدين: متى يقع هذا البعث؟ قل: وما يدريكم أنَّ هذا البعث الذي تُنكرونه وتستبعدونه ربَّما كان قريبَ الوقوعِ، يوم يناديكم خالقكم للخروج من قبوركم، فتستجيبون لأمر الله حامدين، وتنقادون له، وتظنّون - لِهَوْل يوم القيامة - أنَّكم ما أقمتم في الدنيا إلّا زمنًا قليلًا؛ لطول لبثكم في الآخرة[1].

وترشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى بيان ما كان عليه المشركون من شدَّة إنكارهم للبعث الآخر، وبيانِ أنَّ قدرةَ الله تعالى لا يُعجزها شيء، وأنَّ إعادةَ الحياة إلى الجسم أمر مُمكن، بل هو أهونُ على الله من خلقه أوَّلَ مرَّة - وهو أهونُ بالنسبة إلى إدراكنا وحكمنا، وإلّا فخَلْقُ الجبال والناس جميعًا عند الله كخلق ذَرَّة واحدة، والإعادةُ تحت قدرة الله لا تُوصف بالسهولة أو الصعوبة، فكلُّ المُمكِنات عنده سواء؛ لأنَّه لا يعجزُه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، وإلى تعليمِ الله تعالى لرسوله، كيف يجيبُ المُنكرين المُستهزئين بالتي هي أحسن، وبيانِ الأسلوبِ الحواريِّ الهادئ الخالي من الغلظة والشِّدَّة، وإلى استقصارِ مدة اللُّبث في القبور مع طولها؛ لما يُشاهدُ من أهوال البعث[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فَصْلِ الآيةِ عن سابقتِها:

طريقةُ القرآنِ المُتَّبعة في حكاية المحاورات

جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ مفصولًا عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا

(1) طنطاويٌّ، التفسير الوسيط: 3/ 369، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 287.
(2) حجازيٌّ، التفسير الواضح: 2/ 379، ومجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 5/ 766، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 3/ 369، والجزائريُّ، أيسر التفاسير: 3/ 203.

﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ [الإسراء: 49] جريًا على طريقةٍ مُتَّبعةٍ في القرآن في حكاية المحاورات، وهي طريقةٌ عربيَّة، وإنَّما حذَفوا العاطف في أمثاله؛ كراهيةَ تكرير العاطف بتكرير أفعال القول، فإنَّ المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، وإن كان قوله: ﴿قُلۡ﴾ ليس مبدأَ محاورة؛ بل المحاورة بالمقول الذي بعده، ولكن الأمر بالجواب أُعطي حكم الجواب؛ فلذلك فُصِلت جملة ﴿قُلۡ﴾[1].

أوجهُ ارتباطِ الآيةِ بسابقتِها:

تناسُبُ الجوابِ مع السُّؤالِ لتحقيقِ اتِّساقِ النَّظمِ

قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ ردٌّ وجوابٌ عن قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ [الإسراء: 49]، وفي بيان وجه ارتباط ردِّ مقالتهم بقوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ غموض؛ لأنَّهم إنَّما استبعدوا، أو أحالوا إرجاع الحياة إلى أجسام تفرَّقت أجزاؤها، وانخرم هيكلها، ولم يُعلِّلوا الإحالةَ بأنَّها صارت أجسامًا ضعيفة، فيُرَدُّ عليهم بأنَّها لو كانت من أقوى الأجسام؛ لأُعيدت لها الحياة، وفي بيان وجه الارتباط بين الرَّدِّ على مَقالتهم وبين مقالتهم المردودة ثلاثة وجوهٍ:

الوجه الأوَّل: أن تكون صيغة الأمر في قوله: ﴿كُونُواْ﴾ مستعملةً في معنى التَّسوية، ويكون دليلًا على جواب محذوف تقديره: إنَّكم مبعوثون سواء كنتم عظامًا ورفاتًا أم كنتم حجارة أو حديدًا، تنبيهًا على أنَّ قدرة الله تعالى لا يَتَعاصى عليها شيء، وذلك إدماجٌ يجعل الجملة في معنى التّذييل.

الوجه الثاني: أن تكون صيغة الأمر في قوله: ﴿كُونُواْ﴾ مستعملةً في الفَرْض؛ أي: لو فُرِضَ أن تكون الأجسادُ من الأجسام الصُّلبة، وقيل لكم: إنَّكم مبعوثون بعد الموت لأَحَلْتم ذلك، واستبعدتم إعادةَ الحياة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.

فيها، وعلى كلا الوجهيْن يكون قوله: ﴿مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ نهاية الكلام، ويكون قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ مُفرَّعًا على جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا﴾ [الإسراء: 49] تفريعًا على الاستئناف، وتكون الفاء للاستئناف، وهي بمعنى الواو على خلاف في مجيئها للاستئناف، والكلام انتقال لحكاية تكذيب آخر من تكذيباتهم.

الوجه الثالث: أن يكون قوله: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ كلامًا مُستأنفًا ليس جوابًا عن قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: 49]، وتكون صيغة الأمر مستعملةً في التَّسوية، وفي هذا الوجه يكون قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ مُتَّصلًا بقوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾، ومُفرَّعًا على كلام محذوف يدلُّ عليه قوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾؛ أيْ: فلو كانوا كذلك لقالوا: مَن يُعيدنا؛ أيْ: لانتقلوا في مدارج السَّفسطة من إحالة الإعادة إلى ادِّعاء عدم وجود قادرٍ على إعادة الحياة لهم لصلابة أجسادهم.

وبهذه الوجوه يلتئم نظمُ الآية، وينكشف ما فيه من غموض[1].

دلالة التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

الجوابُ مجانسٌ لطريقة السُّؤال

آثر النَّظم الحكيم التَّعبير في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾ [الإسراء: 49]، وهذا الفعل يأتي في قضايا مهمَّة، تحتاج من النَّبيِّ ﷺ أن يُتابعها، وأن يُبلِّغها بنفسه، فأمر الله رسوله ﷺ بأن يُجيبهم بذلك، وقرينة ذلك مقابلةُ فعل ﴿كُنَّا﴾ [الإسراء: 49] في مقالهم بقوله: ﴿كُونُواْ﴾، ومقابلة ﴿عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: 49] في مقالهم بقوله: ﴿حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ مقابلة أجسام واهية بأجسام صُلبة، ومعنى الجواب: أنَّ وهن الجسم مساوٍ لصلابته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى على تكييفه كيف يشاء[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.

بلاغةُ التَّعبير بالأمر ﴿كُونُواْ﴾ رغم عجزهم:

خروجُ الأمر عن الوجوب إلى أغراضٍ يُجلّيها السِّياق

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ التَّعبير بفعل الأمر ﴿كُونُواْ﴾ الذي يُفيد وجوب إيقاع الفعل في أصل الصِّيغة، غير أنَّ هذا الأمر ليس في مقدورهم، فدلَّ السّياقُ على أنَّ غرض الأمر هنا هو التَّعجيز مع الإهانة [1]، وإنَّما خرج مخرج الأمر؛ لأنَّه أبلغ في الإلزام[2]، واعترض بعض العلماء على كون الأمر هنا للتَّعجيز، مُحتجِّين بأنَّ التَّعجيز يكون حيث يقتضي بالأمر فعلُ ما لا يقدر عليه المخاطَب كقوله تعالى: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [آل عمران: 168] ونحوه، وأمَّا هذه الآية؛ فمعناها: كونوا بالتَّوهُّم والتَّقدير كذا، وكذا الذي فطركم كذلك هو يُعيدكم، وقال مجاهد: المعنى: (كونوا ما شئتم؛ فستُعادون)[3].

وفي كلِّ الأحوال؛ فقد خرج الأمر هنا عن دلالة الوجوب إلى دلالة إثبات قدرة الله عليهم مع ثبوت عجزهم.

دلالةُ توالي أفعالِ الأمرِ:

توالي أفعال الأمر يدلُّ على قوَّة السِّياق

في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ فعلا أمرٍ؛ الأوَّل هو: ﴿قُلْ﴾، والثاني هو ﴿كُونُواْ﴾، فأمَّا الأوَّل ﴿قُلْ﴾؛ فهو أمرٌ للنبيِّ ﷺ بأن يبلِّغ عن الله كلامه للنّاس على جهة الوجوب، وأمّا الثاني ﴿كُونُواْ﴾؛ فهو أمر للكفّار على جهة التَّعجيز والإهانة، ويدلُّ توالي أفعال الأمر على قوَّة السّياق، فهو محاججة للكفّار المُنكِرين للبعث.

نكتة تنكير الحجارة والحديد:

العموم والشيوع، والتَّحقيرُ والتَّقليل من شأن المشركين

جاءت في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ كلمةُ ﴿حِجَارَةً﴾ وكلمة ﴿حَدِيدًا﴾ نكرتيْن، والنُّكتة في ذلك هو قصد العموم والشيوع،

(1) درويش، إعراب القرآن: 5/ 454.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 274.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 462.

فليس المقصود نوعًا خاصًّا من الحجارة أو الحديد؛ بل جنس هاتيْن المادتيْن الصُّلبتيْن عمومًا، فضلًا عن احتمال التَّنكير هنا لغرض التَّحقير والتَّقليل من شأنهم، وسبب ذلك أنَّ القوم استبعدوا أن يَردَّهم الله إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا، فأمرهم الله أن يفترضوا انتهاء هذه الأجسام بعد الموت إلى صفةٍ أخرى أشدَّ منافاةً لقبول الحياة من كونها عظامًا ورفاتًا، مثل أن تصير أجسامُهم حجارةً أو حديدًا، فإنَّ المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشدُّ من المنافاة بين العَظْمية وبين قبول الحياة، وذلك أنَّ العظم قد كان جزءًا من بدن الحي، أمّا الحجارةُ والحديدُ؛ فما كانا البتَّة موصوفيْن بالحياة، فبتقدير أن تصير أبدانُ النَّاس موصوفةً بصفة الحَجَرية والحديدية بعد الموت، فإنَّ الله تعالى يُعيد الحياة إليها، ويجعلها حيًّا عاقلًا، كما كان بقدرته العظيمة ﷻ[1].

بلاغة الإرصاد والتَّخيير في الآية:

القادرُ على البدء قادرٌ على الإعادة

في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فنّان بديعان من فنون البلاغة:

الأوَّل: التمكين (الإرصاد):

فنٌّ يُسمّى (التَّمكين)، وبعضهم يُسمّيه (الإرصاد)، وحقيقته أن يُمهِّد المُتكلِّم لقافيته أو سجعة فقرته تمهيدًا تأتي القافية فيه مُتمكِّنة في مكانها مُستقرَّة في قرارها، غير نافرة ولا قلقة؛ فإنَّ السَّامع يعلم أنَّه أراد حجارة أو حديدًا بجاذب من قلبه، ووحيٍ من هاجسه دون أن يسمع بقية الآية.

الثاني: التخيير:

في هاتيْن الآيتيْن هو التَّخيير، وهو أن يُؤتى بقطعة من الكلام، أو بيت من الشعر جملة، وقد عَطف بعضها على بعضٍ بأداة التَّخيير،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 352.

وأن يتضمَّن صحَّة التَّقسيم، فيستوعب كلامه أقسام المعنى الذي أخذ المُتكلمُ فيه، فانظر إلى التَّخيير في هاتيْن الآيتيْن وصحَّة التَّقسيم وحسن التَّرتيب في الانتقال على طريق البلاغة، من الأدنى إلى الأعلى حتى بلغ سبحانه النهاية في أوجز إشارة وأعذب عبارة، إذ قال بعد الانتقال من الحجارة: ﴿أَوْ حَدِيدًا﴾، فانتقل من الحجارة إلى ما هو أصلب منها وأقوى، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾، غير حاصر لهم في صنف من الأصناف، فيتكامل المعنى، ويُشرق في النَّفس إشراقًا تغرق النَّفس فيه؛ أي: إنَّكم تستبعدون أن يُجدِّد الله خلقكم، ويردَّه إلى حال الحياة وإلى رطوبتها وغضاضتها بعد ما كنتم عظامًا يابسةً، وذلك ديدنكم في الإنكار ودأبكم في العناد، فَهَبْكُم لم تكونوا عظامًا! بل كنتم أقسى منها، وأصلب وأبعد عن رطوبة الحياة، هَبْكُمْ حجارةً طبيعتُها القساوةُ والصَّلابةُ، بل هَبْكُمْ حديدًا، وهو أشدُّ أنواع المادة بُعْدًا من الحياة ومنافاة لها، بل أتركُ الأمر لكم لتتصوَّروا ما هو أقسى وأصلب وأنأى عن قبول الحياة، ممّا لا يخطر إلا لذوي العناد من أمثالكم، فإنَّه لقادر على أن يردَّكم إلى الحياة؛ لأنَّ القادر على البدء قادر على الإعادة بل هي أهون عليه بالنسبة لأفهامنا لا إليه تعالى، وهذا من بديع الكلام ومعجزه؛ بل هو من النَّمط الذي استحقَّ ألّا يكون من كلام البشر[1].

فائدة تقديم الحجارة على الحديد:

بلاغة الترقّي من الصُّلب إلى الأصلب

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ تقديمُ الحجارة على الحديد، والنُّكتة في ذلك أنَّه بدأ أوَّلًا بالصُّلب، ثم ذَكَر على سبيل التَّرقّي الأصلب منه، ثم الأصلب من الحديد؛ أي: افرضوا ذواتكم شيئًا من هذه، فإنَّه لا بدَّ لكم من البعث على أية حال كنتم[2].

(1) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن: 236، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 455.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 69.

نكتة تنكير ﴿خَلْقًا﴾:

عمومُ قدرةِ اللهِ في إحياء المخلوقات

آثر الذِّكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ الإتيان بلفظ ﴿خَلْقًا﴾ نَكِرةً، والنُّكتة في ذلك هو قصدُ العموم، فقال بعد الانتقال من الحجارة: ﴿أَوْ حَدِيدًا﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ غير حاصر لهم في صنف من الأصناف؛ أي: افترِضوا ما هو أقسى وأصلب وأنأى عن قبول الحياة، ممّا لا يخطر إلا لذوي العناد من أمثالكم؛ فإنَّه لقادر على أن يردَّكم إلى الحياة، وقال بعضهم: الَّذي يكبُر هو الموت؛ أي: لو كنتم الموت؛ لأماتكم ثم أحياكم، وقيل: الذي يكبر هو السَّموات والأرض والجبال؛ لمّا ذُكِرَ أنَّهم لو كانوا أصلب شيء وأبعده من حلول الحياة به؛ كان خلق الحياة فيه ممكنًا[1].

غرضُ التَّعبير بالمصدر ﴿خَلْقًا﴾:

المبالغة في التَّعبير بالمصدر دون المُشتقّات

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ التَّعبير بالمصدر ﴿خَلْقًا﴾ بمعنى اسم المفعول، أي: المَخلوق، والنُّكتةُ فيه قصد المبالغة بالتركيز على الحدث (الخلق) دون ربطه بذات المفعول، قال سيبويه: "وقد يجيء المصدر على المفعول، وذلك قولك: لبنٌ حَلَبٌ، إنَّما تريد محلوبٌ، وكقولهم: الخَلْق، إنَّما يريدون المخلوق"[2]، ومعنى المصدر في الآية: أو مخلوقًا آخرَ ممّا يعظُم في نفوسكم عن قبوله الحياة، ويستحيل عندكم على الله إحياؤه مثل الفولاذ والنُّحاس[3].

معنى (مِن) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا﴾:

دقّة السّياق القرآني في اختيار حروف المعاني

في قوله تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ حرف الجرِّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 69.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 43.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 127.

(مِن) مدغمًا في (ما) الموصولة، ومعنى (مِن) هنا بيان الجنس؛ أيْ: جنس الخَلْق الصُّلب الذي استبعدوا حلول الحياة فيه، ولهذا قال بعضهم: إنَّ الذي يكبُر في صدورهم، هو السَّموات والأرض والجبال[1].

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول (ما):

التوصُّل إلى الوصف بالاسم الموصول

ورد في قوله تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ حرف (ما) الموصولة، والنُّكتةُ البلاغيةُ في إيثار وضع الاسم الموصول موضع الاسم الظاهر: أنَّه يسمح بوصفه بجملة الصلة؛ أي: افترِضوا الذي هو أقسى وأصلب وأنأى عن قَبول الحياة، فإنَّه لقادرٌ على أن يردَّكم إلى الحياة[2].

دلالة التَّعبير بصِلَةِ الموصول ﴿يَكْبُرُ﴾:

(كَـبُر) في القَدر دالٌّ على القوَّة في النوع والصفات

جاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ الفعل ﴿يَكْبُرُ﴾، وهو مضارع كبُر - بضم المُوحَّدة - فهو إذا عظُم في القدر، فهو نظير قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: 5]، ومعنى ﴿يَكْبُرُ﴾ هنا: يعظُم، وهو عِظَمٌ مجازيٌّ بمعنى القويِّ في نوعه وصفاته[3]، وأمّا الفعل (يكبَرُ) - بفتح الموحَّدة - فهو مضارع (كَبِرَ) كـ(عَلِمَ)؛ إذا زاد في السنِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء: 6]؛ أيْ: ولا تعتدوا على أموال اليتامى بإنفاقها في غير موضعها؛ إسرافًا ومبادرةً لأكلها قبل أن يَكْبَروا في أعمارهم، فيأخذوها منكم.

بلاغة الحذف في الآية:

استبعادُ الكفّار بعثهم بعد الموت

في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ حذفٌ دلَّ عليه الكلام المردود، وهو قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 69.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 69.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 127.

وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الإسراء: 49]، والتَّقدير: (كونوا أشياءَ أبعد عن قبول الحياة من العظام والرُّفات)، والمعنى: (لو كنتم حجارة أو حديدًا؛ لأحياكم الله)؛ لأنَّهم جعلوا كونهم عظامًا حجَّةً لاستحالة الإعادة، فرُدَّ عليهم بأنَّ الإعادة مُقَدَّرَةٌ لله تعالى ولو كنتم حجارة أو حديدًا؛ لأنَّ الحجارة والحديد أبعدُ عن قبول الحياة من العظام والرُّفات؛ إذ لم يسبق فيهما حلول الحياة قطُّ، بخلاف الرُّفات والعظام[1].

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي صُدُورِكُمۡ﴾:

الصدور ظرف ووعاء للقلوب ومكنوناتِ النُّفوس

آثر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ استعمال حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة في عبارة ﴿فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾، والنُّكتةُ في ذلك أنَّ ذِكْر الصُّدور؛ المُرادُ منه ما تتضمَّنه من القلب والبواطن والضمائر؛ جريًا على معروف اللغة من إضافة الخواطر النَّفسيَّة إلى الصَّدر والقلب؛ لأنَّ الانفعالاتِ النَّفسانيَّةَ وتردُّدات التَّفكُّر ونيّات النُّفوس كلَّها يُشعَرُ لها بحركات في الصُّدور؛ فكانت الصُّدور ظَرْفًا ووعاء للقلب ومكنونات النُّفوس.

نكتةُ إيثار الصُّدور على القلوب:

القلب هو موطن المشاعر والضمائر والبواطن

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ أُوثر التعبير بالصدور على القلوب مجازًا بعلاقة الحلول، والمُراد: ضمائر أنفسهم، والعرب يُطلقون القلب على العقل؛ لأنَّ القلب هو الذي يُحِسُّ الإنسانُ بحركته عند الانفعالات النَّفسية من الفرح وضده والاهتمام بالشيء[2]، والدليل على المجاز هنا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحَجّ: 46]، فهي صريحة في إطلاق المَحلِّ (الصَّدْر) وإرادة الحالِّ فيه من (القلب).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 173.

معنى الفاء والسّين في: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

تنـوُّع الـدَّلالات القرآنيَّة حسب دلالــة حــروف المعاني

ورد الفعل (يقولون) في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ مُقترنًا بالفاء والسّين، فأمّا الفاء؛ فتحتمل العطف أو الاستئناف؛ لأنَّه يحتمل في سياق الآية أن يتمَّ الكلام عند قوله: ﴿مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾، فيكون قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ مُفرَّعًا على جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا﴾ [الإسراء: 49] تفريعًا على الاستئناف، فتكون الفاء للاستئناف؛ وهي بمعنى الواو، والكلام انتقالٌ لحكاية تكذيب آخر من تكذيباتهم.

كما يحتمل سياقُ الآية العطفَ بأن يكون قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ متَّصلًا بقوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾، ومُفرَّعًا على كلامٍ محذوفٍ يدلُّ عليه قوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾؛ أي: فلو كانوا كذلك؛ لقالوا: مَن يعيدنا؟ أيْ: لانتقلوا في مدارج السَّفسطة من إحالة الإعادة إلى ادِّعاء عدم وجود قادر على إعادة الحياة لهم لصلابة أجسادهم[1]، وفي كلا الاحتمالَيْن تكون السّين للاستقبال؛ أيْ: سيكون هذا جوابهم بعد أن تقولَ لهم - أيُّها الرسولُ - ذلك.

نكتةُ السُّؤال عن المُعيد لا عن أصل الإعادة:

التَّـمـادي في التَّـكـذيـب بـالـسُّـؤال عن المُعيد

في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ سؤال من الكفَّار عن المُعيد لهم، وذلك أنَّه لـمَّا قال لهم: كونوا حجارة أو حديدًا، أو شيئًا أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين، فإنَّ إعادة الحياة إليه ممكنة، فعند ذلك قالوا: من هذا الَّذي يقدِر على إعادة الحياة إليه؟ وجعلوا سؤالهم هنا عن المُعيد لا عن أصل الإعادة؛ لأنَّ البحث عن المُعيد أَدْخَلُ في الاستحالة من البحث عن أصل الإعادة، فهو بمنزلة الجواب بالتَّسليم الجدلي بعد الجواب بالمنع، فإنَّهم نَفَوا إمكان إحياء الموتى، ثم انتقلوا إلى التَّسليم الجدلي؛ لأنَّ التَّسليم الجدلي أقوى في معارضة الدَّعوى من المنع[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 128.

دلالة ﴿مَن﴾ في: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾:

أسـمـاء الـلـه تعالى وصفاته توقيفيّة

ورد في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ اسْتِعمالُ اسم الاستفهام ﴿مَن﴾ الَّذي يَرِدُ في اللغة غالبًا للاستفهام عن العاقل من المخلوقات[1]، والاستفهام من قِبَل المشركين إنكارٌ لوجود البعث والحساب، وإذا تعلَّق اسم الاستفهام بالله ﷻ؛ فإنَّ الله تعالى يُوصفُ بصفة العلم، ولا يُوصفُ بصفة العقل؛ لأنَّ أسماء الله تعالى وصفاته توقيفيَّةٌ لا مجال للاجتهاد فيها، فلا يجوز تسمية الله تعالى، أو وصفه بما لم يأتِ في الكتاب والسُّنَّة.

غرضُ الاستفهام في: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾:

استهزاء الكفّار بمسألة البعث بعد الموت

جاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أسلوبُ استفهام، والغرضُ من هذا الاستفهامِ التَّهكُّم[2]؛ لأنَّهم استعظموا بَعْثَهم وإعادتهم إلى الحياة مع ما بينهم وبين الإعادةِ من المُباعدةِ والمُباينة، فقالوا استهزاءً: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾[3].

نكتةُ فصل قوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

طريقة القرآن في حكاية المحاورات

أتى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مفصولًا عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾؛ جريًا على طريقة مُتَّبعة في القرآن في حكاية المحاورات بجُمَلٍ مفصولةٍ، وإنَّما حذَفوا العاطفَ في أمثاله؛ كراهيةَ تكرير العاطف بتكرير أفعال القول، فإنَّ المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، فطردوا الباب، فحذفوا العاطف في الجميع، وهو كثير في التَّنزيل، فلذلك فُصلتِ جملة ﴿قُلِ﴾[4].

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 327.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 128.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 439.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.

دلالة الأمر في الفعل: ﴿قُلِ﴾:

وظيفة الرّسول التّبليغ والبيان

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ ورد التَّعبيرُ بفعل الأمر: ﴿قُلِ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾، فلمَّا كان قولُهم هذا محقَّقَ الوقوع في المستقبل؛ أمر الله رسوله ﷺ بأن يُجيبهم عندما يقولونه جوابَ تعيين لمَنْ يُعيدهم؛ إبطالًا للازم التَّهكُّم[1].

نكتةُ الإتيان بالاسم الموصول وصلته:

مَنِ ابتدأ الخلقَ قادرٌ على إعادته

جاء في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ إيرادُ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ وصلته: ﴿فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾؛ لنكتةٍ بلاغيةٍ، وهي قصدُ ما في الصِّلة من الإيماء إلى تعليل الحكم بأنَّ الذي فطرهم أوَّل مرَّةٍ قادرٌ على إعادة خلقهم، فضلًا عن دلالة الاسم الموصول هنا على التَّعظيم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الرُّوم: 27]، فإنَّه لقدرته التي ابتدأ بها خلقكم في المَرَّة الأُولى قادرٌ أن يَخلقكم مرَّةً ثانيةً[2].

بلاغةُ أسلوبِ الحكيمِ في الرَّدِّ عليهم:

بـلاغـةُ تـلـقّـي المُخاطَب بما هو أولى من سؤاله

ورد قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾، وقد جاء هذا الجواب على طريقة أسلوب الحكيم في الرَّدِّ، وهو عند البلاغيِّين تلقّي المخاطَب بغير ما يترقَّب، بحمل كلامه على خلاف مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه الأَوْلى بالقصد[3].

فلمّا كان سؤالهم ﴿مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ تهكُّمًا وإنكارًا منهم لوجود البعث والحساب، وكان قولهم هذا محقَّقَ الوقوعِ في المستقبل؛ أمرَ الله رسوله ﷺ بأن يُجيبهم عندما يقولونه جواب تعيين لمَنْ يُعيدهم؛ إبطالًا للازم التَّهكُّم، وهو الاستحالة في نظرهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 128.
(3) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 145.

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾؛ إجراء لظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مُرادهم؛ لأنَّ ذلك أجدر على طريقة أسلوب الحكيم لزيادة المُحاجَّةِ، كقوله في مُحاجَّة موسى لفرعون: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾ [الشعراء: 25 - 26][1].

نكتة التَّعبير بـ﴿فَطَرَكُمْ﴾:

تأكيد قدرة الله تعالى على إيجاد الخلق مرارًا

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ عبَّر السياق القرآني بالفعل ﴿فَطَرَكُمْ﴾، وهو إيجاد الشَّيء وإبداعه على غير مثالٍ سابقٍ، والنُّكتة في ذلك إفحامُ مُنكري البعث بأنَّ الذي أوجدكم من غير مثالٍ سابقٍ قادرٌ على إيجادكم من جديدٍ، وتأكيد قدرة الله تعالى على كل شيء، وهذه حُجَّةٌ عقليةٌ دامغةٌ.

علَّةُ التَّعبيرِ بقوله ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾:

إثباتُ البعثِ بالتذكيرِ بالنَّشأةِ الأُولى

جاء التَّعبيرُ بـ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ تذكيرًا للمشركين بأصل الخِلقة ومُنشئها، فالقادر على البدء قادرٌ على الإعادة وردِّكم إلى الحياة، بل هي أهون عليه بالنسبة لأفهامكم لا إليه تعالى، فالكلُّ هيّنٌ عليه، ولكن خاطبهم بما يعقلون، فهو نظير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الرّوم: 27].

معنى الفاء والسّين في: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾:

أثر حروف المعاني في توضيح السّياق القرآني

اتّصلت الفاء والسِّين بالفعل (ينغضون) في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾، وجاءت الفاء لتفصح عن جواب شرط مقدَّر؛ أيْ: (إن قلتَ لهم... فسينغضون)، وهي التي تُسمَّى الفاء الفصيحة، وبعضُهم يُسمِّيها فاء الفضيحة؛ لأنَّها كشفت عن الشَّرط، وأمّا السِّين فهي للاستقبال، وقد أفادت الإخبار بردَّة فعلهم في المستقبل بعد سماع الحُجَّة الدَّامغة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 128.

نكتة التَّعبير بـ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾:

الإنغاضُ تحريكُ الـرّأسِ للتهكُّمِ والإنكارِ

ورد في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ لفظ ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾، بمعنى: يحرِّكونها استهزاءً، وقيل: يُحرِّكون رؤوسهم تكذيبًا لهذا القول.

وقال الزَّجَّاج: "فسيُحرِّكون رؤوسهم تحريكَ مَنْ يُبطل الشَّيءَ، ويستبطئه"[1]، وهو من الفعل (أنغض)، يُقال: أنغض رأسه ينغضها؛ أيْ: يُحرِّكها إلى فوق، وإلى أسفل إنغاضًا، فهو منغضٌ؛ إذا أخبر الرجلُ بشيءٍ، فحرَّك رأسه إنكارًا له، فقد أنغضَ، وأمَّا نغض ثلاثيًّا، ينغَض وينغُض بالفتح والضَّمِّ، فبمعنى: تحرَّك، لا يتعدَّى، يُقال: نَغَضَتْ سِنُّه؛ أي: تحرَّكتْ، تَنغِضُ نغضًا، ونغوضًا[2].

غرض تعدية ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ بـ(إلى):

تـوجـيـه حـركـة إنـغـاض الـرأس إلى الرَّسول ﷺ

في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أتى لفظ ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ متعدّيًا بحرف الجرِّ (إلى) الدَّالِّ على انتهاء الغاية، وتعديتُه بحرف (إلى) تنبيهٌ على شدَّة توجيه حركة إنغاض الرأس إلى الرَّسول ﷺ، لما في (إلى) من معنى الانتهاء، حتى كأنَّ الإنغاض انتهى عند المجرور بـ (إلى) انتهاء تمكُّن واستقرار.

نكتة تقديم ﴿إِلَيْكَ﴾ على المفعول:

تخصيصُ الكفّار اسـتـهـزاءهـم بالرَّسول ﷺ

جاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ تقديمٌ لشبه الجملة ﴿إِلَيْكَ﴾ على المفعول ﴿رُءُوسَهُمْ﴾؛ لنكتةٍ بلاغيةٍ هي الاختصاص، ويجعل أئمة علم المعاني التّخصيص لازمًا للتقديم[3]، بمعنى اخْتِصاصِهم النَّبيَّ ﷺ بإنغاض الرّأس استهزاء؛ أيْ: إنَّهم قصدوا النَّبي ﷺ خصوصًا دون غيره؛ لأنَّه هو المُتوعِّد لهم بالبعث والإحياء.

(1) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 244، والواحديُّ، البسيط: 13/ 361.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 306.
(3) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 233.

معنى الواو في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾:

استُعمل حرف (الواو) في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ وهو دالٌّ على العطف والاقتران؛ ومعنى ذلك اقتران إنغاضهم الرؤوسَ استهزاء بسؤالهم عن يوم البعث استهزاءً أيضًا.

اقتران إنغاض الكفار رؤوسهم استهزاءً بسؤالهم عن يوم البعث

نكتة التَّعبير بالأفعال المُضارعة في الآية:

ورد في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ التعبيرُ بالأفعال المضارعة في القول مرتيْن، وفي الإعادة، وفي الإنغاض، دون غيرها من الأزمنة؛ لما يُفيده المضارع من افْتِراضِ تَكَرُّرِ الحَدَثِ وتجدُّده واستمراره[1]؛ فالكفَّار يستمرُّون في تكذيب الرسول ﷺ، ويتكرَّر استهزاؤهم بالبعث والجزاء، فضلًا عن إفادة هذه الأفعال المضارعةَ هنا في هذا السّياق لاستحضار الصُّورة.

استحضارُ صورة الحَدَثِ وتكرُّره واستطالته

معنى ﴿مَتَىٰ﴾ في قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾:

استُعمل اسم الاستفهام ﴿مَتَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾، وهو اسمٌ يَرِدُ في اللغة للسُّؤال عن الزَّمان، نحو: (متى السفرُ)؟ وقد يخرج عن الاستفهام الحقيقيِّ إلى معانٍ أخرى[2]؛ كالاستبطاء، والاستبعاد نحو وروده في هذه الآية، وكذلك في قوله تعالى مثلًا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: 48].

استبطاءُ الكفَّارِ لـيـوم الـبـعـث واستبعادهم له

غرضُ الاستفهام في قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾:

ورد في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ الاستفهام بـ ﴿مَتَىٰ﴾ عن يوم البعث، وغرضهم من الاستفهام

تـهـكُّـم الـكـفّار وسُخْريتهم من البعث

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 267.

هو التَّهكُّم والسُّخرية[1]، نظير استفهامهم السَّابق: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾، فغرضُهُم من هذه الأسئلة جميعًا هو التهكُّم بالرَّسول ﷺ والسُّخرية من توعُّدِهم بالبعث.

فائدة عود الضمير ﴿هُوَ﴾:

حيدةُ المُشركين وانتقالُهم لما لا يُسأل عنه

في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ جاء الضمير ﴿هُوَ﴾، وهو عائد إلى العَود المأخوذ من قوله: ﴿يُعِيدُنَا﴾، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8][2]؛ أيْ: متى العَوْدُ؟ ولم يقولوا ذلك على سبيل التَّسليم للعَوْد، ولكن حيدةً وانتقالًا لما لا يُسأل عنه؛ لأنَّ ما يُثبَت إمكانُه بالدليل العقلي لا يُسأل عن تعيين وقوعه، ولكن أجابهم عن سؤالهم بقرب وقوعه لا بتعيين زمانه؛ لأنَّ ذلك ممّا استأثر الله تعالى بعلمه[3].

نكتة فصل جملة ﴿قُلْ عَسَىٰٓ ....﴾:

طريقة القرآن في حكاية المحاورات

فُصِل قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ عن الجملة السّابقة؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؛ جريًا به على طريقة حكاية المحاورات بجُمَلٍ مفصولةٍ، وإنَّما حُذف العاطف في أمثاله كراهيةَ تكرير العاطف بتكرير أفعال القول؛ فإنَّ المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، فطردوا الباب، فحذفوا العاطف في الجميع، وهو كثير في التَّنزيل، فلذلك فُصِلت جملة ﴿قُلْ﴾[4].

دلالةُ الأمر بـ﴿قُلْ﴾ وغرضُ إعادته:

وجوبُ التبليغِ على الرسول ﷺ

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؛ فأمر الله رسوله ﷺ بأن يُجيبهم بقربه، فإنَّ الله تعالى لمّا بيَّن بالبرهان الباهر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 63.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.

كون البعث مُمكنًا في نفسه، فقولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ كلامٌ لا معنى له، فإنَّه لـمَّا ثبت بالدَّليل العقليِّ كونه ممكنَ الوجود في نفسه؛ وَجَبَ الاعتراف بإمكانه، فأمَّا أنَّه متى يوجد؛ فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل؛ بل إنَّما يمكن إثباته بالدلائل السَّمعيَّة، فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المُعيَّن؛ عُرِفَ، وإلّا فلا سبيل إلى معرفته[1].

وجهُ التَّعبير بحرف التَّرجّي ﴿عَسَىٰٓ﴾:

توعُّد المشركين، وكلُّ ما هو آتٍ قريب

عبَّر السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ بـ ﴿عَسَىٰٓ﴾ التي للرَّجاء على لسان الرسول ﷺ؛ والمعنى: لا يبعد أن يكون قريبًا[2]، وقال المفسِّرون: (عسى) من الله واجبةٌ؛ والمعنى: وهو قريب، وهي وإن كانت في الآية من النَّبيِّ ﷺ، ولكنَّها بأمر الله، فيقرِّبها ذلك من الوجوب، وفي ضمن هذا اللفظ تَوَعُّد لهم[3].

بلاغةُ اقتران الفعل بـ ﴿أَن﴾:

تهديدُ المشركين على استهزائهم بيوم البعث وتأكيد وقوعه

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ اقتران الفعل المضارع ﴿يَكُونَ﴾ بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وسبب ذلك أنَّ اقتران خبر (عسى) بـ (أنْ) كثير، وتجريده من (أنْ) قليل، وهذا مذهب سيبويه، ومذهبُ جمهور البصريين أنَّه لا يتجرَّد خبرها من (أنْ) إلّا في الشِّعر، ولم يرد في القرآن إلّا مقترنًا بـ (أنْ) في نحو ثلاثين موضعًا، نحو قول الله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ [المائدة: 52][4]، واقترانُ الفعلِ (عسى) بالحرفِ المصدريِّ (أنْ) في القرآنِ الكريمِ من الأساليبِ البلاغيةِ التي تُفيدُ معانيَ متعددةً، وهنا أفاد تهديدَ المشركين على ما مضى من صور استهزائهم بيوم البعث، وتأكيد وقوعه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 463.
(4) ابن عقيل، شرح الألفية: 1/ 327.

نكتة التَّعبير بـ ﴿يَكُونَ﴾ مضارعًا:

دلالـــة صيغة المـضـارع على الاستقبال

في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ورد الفعل ﴿يَكُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ لأنَّه وقع موضع الخبر للفعل ﴿عَسَىٰٓ﴾، وقد تقرَّر في النَّحو أنَّ (عسى) من أفعال المقاربة التي تدخل على المبتدأ والخبر، فترفع المبتدأ اسمًا لها، ويكون خبره خبرًا لها في موضع نصب، ولا يكون الخبر في هذا الباب إلّا مضارعًا في الغالب[1]، وكذلك لأنَّ السِّياق هو في السُّؤال عن يوم البعث، وهو آتٍ في المستقبل، فعبَّر بالمضارع الدَّالِّ على الاستقبال.

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿أَن يَكُونَ﴾ وفائدته:

دلالـــة (كـــان) بـين الـتَّـمـام والنُّقصان

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ بالفعل ﴿يَكُونَ﴾، وهو مضارع الفعل (كان)، ويجوز أن تكون الناقصة، واسمها مُستترٌ فيها يعود على البعث والحشر المدلول عليهما بقوة الكلام، أو لتضمُّنه في قوله: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الإسراء: 49] و﴿أَن يَكُونَ﴾ خبرها، كما يجوز أن تكون التّامَّة مُسنَدة إلى ﴿أَن﴾ وما في حيِّزها، وفاعل ﴿يَكُونَ﴾ ضمير البعث، وهو مُستترٌ يدلُّ عليه السّياق[2].

الموقع الإعرابي لقوله: ﴿قَرِيبًا﴾ ودلالته:

وقـوع البعث في زمن قريب

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ لفظ ﴿قَرِيبًا﴾ منصوبًا، وفي توجيه نصبه وجهان:

أحدهما: أنَّه خبر (كان)، وهو وصف على بابه.

الثاني: أنَّه ظرف؛ أيْ: زمانًا قريبًا، و﴿أَن يَكُونَ﴾ على هذا تامَّة؛ أيْ: عسى أن يقع العَوْد في زمان قريب[3].

وكون البعثِ قريبًا قد يحمل على الحقيقة، كما دلَّ عليه قوله

(1) ابن عقيل، شرح الألفية: 1/ 324.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 307.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 308.

ﷺ: "بُعِثْتُ أنا والسَّاعَةَ كَهذِه مِن هذِه، أوْ: كَهاتَيْنِ وقَرَنَ بيْنَ السَّبَّابَةِ والوُسْطَى"[1].

ويحتمل أن يريد بالقُرب أنَّ إتيان السَّاعة مُتَناهٍ، وكلُّ ما كان متناهيًا من الزمان فهو قليلٌ، بل أقلُّ من القليل بالنِّسبة إلى الزَّمان الَّذي بعده؛ لأنَّه غير مُتناهٍ، كنسبة العدد المُتناهي إلى العدد المُطلق؛ فإنَّه لا يُنسب إليه بجزء من الأجزاء، ولو قلَّ، ويُقال في المثل: (كلُّ آتٍ قريب)[2].

بلاغة أسلوب الحكيم في الآية:

معاندة الكفّار بعد قيام الحُجَّة بالبعث

أتى قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾، فهم قد سألوا عن تحديد يوم البعث استهزاء وتهكُّمًا، ولكنَّ الرسول ﷺ أُمِرَ بأن يجيبهم جوابًا حقًّا؛ إبطالًا للازم التَّهكُّم على طريقة (أسلوب الحكيم) في الرَّدِّ، وهو عند البلاغيِّين تلقّي المُخاطَب بغير ما يترقَّب، بحمل كلامه على خلاف مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه الأَوْلى بالقصد[3]؛ فكان الجواب بأنّه لا يبعد أن يكون قريبًا[4].

كما أنَّ هذا السُّؤال فاسدٌ من أصله؛ لأنَّهم حكموا بامتناع الحشر والنَّشر بناءً على شبهة عدم القدرة على إحياء الرُّفات، ثم إنَّ الله تعالى بيَّن بالبرهان الباهر كونه ممكنًا في نفسه، فقولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ مجرَّد معاندة، فإنَّه لمّا ثبت بالدليل العقليِّ كونه ممكنَ الوجود في نفسه؛ وجب الاعتراف بإمكانه، فأمّا أنَّه متى يوجد؛ فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل، بل يمكن إثباته بالدلائل السَّمعية؛ فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المُعيَّن عُرِفَ، وإلّا فلا سبيل إلى معرفته.

(1) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (5301).
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 307.
(3) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 145.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.

الموقع الإعرابيُّ لقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾، وأثره:

تـعـدُّد المعـاني القرآنيَّة بتنوُّع التَّخريجات الإعرابيَّة

استُعمل الظَّرف ﴿يَوْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾، وقد قيل في إعرابه خمسةُ أوجه يختلف المعنى باختلافها، وكلُّها معقولٌ مقبولٌ: **الأول:** أنَّه بدلٌ من ﴿قَرِيبًا﴾؛ إذا أعربنا ﴿قَرِيبًا﴾ ظرف زمان؛ والمعنى: عسى أن يكون يومُ البعث يومَ يدعوكم؛ أيْ: بالنداء الذي يُسمعكم، وهو النفخة الأخيرة؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق: 41]، **والثاني:** أنَّه منصوبٌ بـ ﴿يَكُونَ﴾، **والثالث:** أنَّه منصوبٌ بضمير المصدر الذي هو اسم ﴿يَكُونَ﴾؛ أيْ: عسى أن يكون العَودُ يومَ يدعوكم، **والرابع:** أنَّه منصوب بفعلٍ مُقدَّرٍ؛ أيْ: اذكر يومَ يدعوكم، **والخامس:** أنَّه منصوب بالبَعْث المُقدَّر[1].

دلالةُ عَودِ الضَّمير في ﴿يَدْعُوكُمْ﴾:

عـمـومُ البعث لـلـكُـفّـار والمـؤمـنـين، وتـخـصـيـص الكُفَّار بالوعيد

آثر الذِّكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ استعمالَ ضمير الخطاب للجمع بقوله: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾، وقد اختلف العلماء في تعيين مَرجِعِه على قولَيْن:

الأوَّل: أنَّه خطابٌ مع الكُفّار بدليل أنَّ ما قبل هذه الآية كلُّه خطابٌ مع الكفّار؛ والمعنى: عسى أن يكون بعْثُكم ـ أيُّها الكفّار ـ يوم يدعوكم؛ أيْ: بالنِّداء الذي يُسمعكم، وهو النَّفخة الأخيرة، كما قال: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق: 41].

الثّاني: أنَّ الكلام مع الكفّار قد تمَّ عند قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، وأمّا قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾؛ فهو خطابٌ مع المؤمنين لا مع الكافرين؛ لأنَّ هذا الكلام هو اللَّائق بالمؤمنين؛ لأنَّهم يستجيبون لله بحمده، ويحمدونه على إحسانه إليهم، والقولُ الأوَّل هو المشهور، والثّاني ظاهر الاحتمال[2].

(1) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصون: 7/ 369، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 308.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 354.

معنى ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

نداءُ الخلائقِ للخروج من القبور؛ للبعث والجزاء

ورد في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ استعمالُ الفعل ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾، واختُلِفَ في دلالته، فحمله أكثرُ العلماء على حقيقته؛ أيْ: دعاء الله الناس إلى المَحْشر بكلام تسمعه الخلائق، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج، وقيل: بالصيحة التي يسمعونها، فتكون داعيةً لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة، وحمل بعضهم ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ على الأمر التّكوينيّ بإحيائهم، فأطلق عليه الدُّعاء؛ لأنَّ الدُّعاء يستلزم إحياء المدعو وحصول حضوره، فهو مجاز في الإحياء والتَّسخير لحضور الحساب[1].

أو المعنى: (يوم يبعثكم فتنبعثون) استعار لهما الدُّعاء والاستجابة؛ للتَّنبيه على سرعتهما وتيسُّر أمرِهما، وأنَّ المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء[2].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾:

استجابةُ الخلائقِ للمنادِي نافذٌ على الفورية

جاء التَّعبير القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ بحرف الفاء الذي يدلُّ في اللُّغة على معنى الترتيب والتعقيب، ومدلوله أنَّ استجابة الخلائق يعتقب نداءهم بلا تأخير، ويدلُّ على سرعة استجابتهم قوله سبحانه في آية أخرى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣﴾ [المعارج: 43]، أي: يقومون من القبور؛ إذا دعاهم الربُّ ﷻ لموقف الحساب سراعًا، كأنَّهم إلى غاية يسعون إليها.

نكتة التَّعبير بـ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ﴾:

الاستجابة أوكد دلالة من الإجابة

في قوله تعالى: ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ جاء استعمال الفعل ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ﴾، و(استجاب) عند جمهور أئمَّة اللغة بمعنى: أجاب، فالسين والتَّاء للتَّأكيد، مثل: استوقد، واستخلص.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 258.

وذهب الفرّاء وعليُّ بن عيسى الرَّبَعي إلى أنَّ (استجاب) أخصُّ من (أجاب)؛ لأنَّ (استجاب) يُقال لمَنْ قَبِل ما دُعي إليه، و(أجاب) أعمُّ، فيُقال لمَنْ أجاب بالقبول وبالرَّدِّ: والاستجابة هي التَّحرِّي للجواب والتَّهيُّؤ له، لكن عبَّر به عن الإجابة لقِلَّة انفكاكها منها[1]؛ فجاء النَّظْم القرآنيُّ بأبلغ تعبير بقوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على موافقة الدَّاعي فيما دعا إليه، فيقومون من قبورهم لا يتخلَّف أحدٌ.

معنى ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الاستجابةُ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ قد تكون على حقيقتها، وذهب بعض العلماء إلى كون الدعاء والاستجابة مجازًا، فقالوا: إنَّ الاستجابةَ مُستعارة لمطاوعة معنى يدعوكم؛ أيْ: فتَحْيَوْن، وتَمْثلون للحساب؛ أيْ: يدعوكم وأنتم عظام ورفات، وليس للعِظام والرُّفات إدراك واستماع، ولا ثَمَّ استجابة؛ لأنَّها فرع السماع؛ وإنَّما هو تصوير لسرعة الإحياء والإحضار وسرعة الانبعاث والحضور للحساب، بحيث يحصل ذلك كحصول استماع الدعوة واستجابتها في أنَّه لا معالجة في تحصيله وحصوله ولا ريث ولا بطء في زمانه[2].

تصوير سرعة الإحياء والحضور للحساب

معنى الباء في ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾:

ورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ حرف الجرِّ الباء من قوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾، ومعناها: الملابسة؛ فهي في معنى الحال؛ أيْ: حامدين، فهم إذا بُعِثوا؛ خُلِقَ فيهم إدراك الحقائق، فعلموا أنَّ الحقَّ لله.

الملابسة للمبالغة في انقيادهم للبَعْث، أو التَّعلُّق بمحذوف

وهذا مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لِمَنْ تأمرهُ بعملٍ يشقُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.

عليه: (ستأتي به وأنت حامدٌ شاكرٌ)؛ أيْ: ستأتي إلى حالةٍ تحمدُ اللّه، وتشكر على أن اكتفى منك بذلك العمل، وهذا يُذْكَرُ في معرض التَّهديد[1].

ويجوز أن يكون ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه من كلام النَّبيِّ ﷺ، والتَّقدير: (انطق بحمده)، كما يُقال: (باسم اللّه)؛ أي: أبتدئ، وكما يُقال للمُعَرِّسِ: باليُمْنِ والبركة؛ أي: (احمد اللّه على ظهور صدق ما أنبأتكم به)، ويكون اعتراضًا بين المتعاطفات[2].

معاني الحمد في قوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾:

حمْدُ الكفَّار لله وتقشُّعُ إنكارهم وعنادهم حين لا ينفعهم الحمد

في تفسير (الحمد) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ عدَّة أقوال؛ منها: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾: بأمره، وقيل: بطاعته؛ لأنَّهم لمّا أجابوه بالتَّسبيح والتَّحميد؛ كان ذلك معرفةً منهم وطاعةً، ولكنَّهم لا ينفعهم ذلك في ذلك اليوم، وقيل: يُقرّون بأنَّه خالقهم وباعثهم، ويحمدونه حين لا ينفعهم الحمد؛ أي: حالهم تكون حال الحامد الرَّاغب العالِم بقدرة اللّه تعالى لَا حال المُستَنكِر أو المُستغرِب، وكأنَّهم يكونون في حال غير الحال التي كانوا عليها في الدُّنيا من كُفرٍ وإنكار، بل هم على حال الإقرار باللّه تعالى، وأنَّه وحده المُستحِقُّ للألوهيَّة ﷻ[3]، وهذا على أنَّه خطابٌ للكفَّار.

وقيل: هذا خطاب للمؤمنين، وقيل: يخرجون من قبورهم، وينفضون التُّراب عن رؤوسهم، ويقولون: سبحانك وبحمدك، وهو قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾.

وقال أهل المعاني: أيْ: تستجيبون حامدين، كما تقول: جاء بغضبه؛ أي: جاء غضبان، وركب الأمير بسيفه؛ أيْ: وسيفه معه[4].

(1) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصون: 7/ 369، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 308.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 130.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4399.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 309.

معنى الواو في: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾:

دلالة الواو على الإشـــراك في الحُكم أو الحال

ورد قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوفًا على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ بحرف الواو؛ لإشراكهما في الحكم، فقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ معطوف على ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾، أي: وتحسبون أنَّكم ما لبثتم في الأرض إلّا قليلًا، وقال بعضهم: إنَّها واو الحال، والتقدير: (وأنتم تظنون)، والجملة حالية[1].

نكتة التَّعبير بـ﴿وَتَظُنُّونَ﴾:

تـردُّدَ الظـنِّ بين الشَّكِّ واليقين

آثر النَّظمُ القرآني التعبير بفعل الظنِّ في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ وهو من أفعال الأضداد؛ أيْ: يَرِدُ للمعنى وضدِّه، والسِّياق هو الذي يُحدِّد المعنى المقصود، ففي هذه الآية إذا كان الخطاب للكُفّار، وهو الظَّاهر، فيحتمل أن يكون الظَّنُّ على بابه، فيكون لمّا رجعوا إلى حالة الحياة؛ وقع لهم الظَّنُّ أنَّهم لم ينفصلوا عن الدُّنيا إلَّا في زمن قليل إذ كانوا في ظنِّهم نائمين، كما يحتمل أيضًا أن يكون الظَّنُّ هنا بمعنى اليقين من حيث علموا أنَّ ذلك مُنقضٍ مُتصرِّمٌ[2].

دلالة حرف ﴿إِن﴾:

شدَّةُ نفيِ الكُفَّار طـولَ لبثهم في الدنيا

في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ استُعمل حرف النفي ﴿إِن﴾، وهو أشدُّ نفيًا من الحرف (ما)، ومعلِّقٌ للظنِّ عن العمل فيما بعدها، وقلَّ مَن ذَكَر (إن) النَّافية في أدوات تعليق هذا الباب[3]، وهو حرفٌ موضوعٌ لنفي الحال عند الإطلاق، وإن قُيِّدَ كان بحسب ذلك القيد، ويدخل على الفعل المضارع والماضي، فإن دخل على الفعل المضارع؛ كان في الغالب لنفي الحال، فإنَّ الكفّار يوم يُبعَثون يَنفون لُبْثَهم في الدنيا إلّا الشَّيء اليسير[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 65.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 65.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 136/ 16، والهلال، تفسير الثّري الجامع: 15/ 52.
(4) فاضل السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 199.

فائدة التَّعبير باللُّبث:

اللُّبثُ إقامةٌ دالَّةٌ على مُدَّة محدَّدةٍ بزمنٍ

ورد في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ التَّعبير بالفعل ﴿لَّبِثْتُمْ﴾ دون غيره من الأفعال لنكتةٍ بلاغية، وهي أنَّ هذا الفعل يردُ كثيرًا في المُدَّة المحدودة بزمنٍ، كقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]، بخلاف (المُكْث) الذي هو غير محددٍ بزمنٍ معينٍ في الغالب، كقوله تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: 3]، واستعمالُ اللُّبْث في هذه الآية: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مناسب لقلَّة المدَّة باعتبار الآخرة.

بلاغة القصر في: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

التّعجيب من ظنون المشركين وإثارة النّدم في قلوبهم

في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قَصْرٌ مُسْتَفادٌ مِنْ جَمْعِ النفي بـ ﴿إِن﴾ وَالاسْتِثْناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾، وَهُوَ قَصْرُ مَوْصوفٍ عَلى صِفَةٍ؛ أيْ: قصر لبثهم على مدةٍ قليلةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ.

والغرض من هذه القصرِ التعجيبُ من هذه الحالة، ولذلك جاء في بعض آيات أخرى سؤال المولى حين يُبْعَثون عن مدَّة لبثهم تعجيبًا من حالهم، قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: 112 - 114]، وهذا التَّعجيب فيه تنديمٌ للمشركين؛ للتَّعبير عن الندم والحزن واللَّوم الذي ينالهم على تفريطهم في فوات الفرصة، أو التقصير في العمل في الدنيا، وتأييد للمؤمنين؛ فالمقصود أنَّهم ظنّوا ظنًّا خاطئًا، وهو محلُّ التَّعجيب[1].

نكتةُ تنكير ﴿قَلِيلًا﴾:

الحياة الدّنيا قصيرة وإن طالت

ورد في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لفظ ﴿قَلِيلًا﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 130.

منكَّرًا، والغرضُ البلاغيُّ من التَّنكير فيها هو التَّقليل؛ لأنَّ الإنسان لو مكث ألوفًا من السِّنين في الدُّنيا أو في القبور، عُدَّ ذلك قليلًا في مدة القيامة والخلود[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنغاضُ والتَّحريكُ والهَزُّ:

التَّحريك عامٌّ، والإنغاض خاصٌّ بالتَّهكُّم والسُّخرية

بين ألفاظ (الإنغاض) و(التَّحريك) و(الهزِّ) فروقٌ دلالية دقيقة تتضح من خلال المفهوم اللُّغوي لكلٍّ منها، فالتَّحريك عامٌّ في الأشياء، والهزُّ تحريك خاصٌّ يدلُّ على اضطرابٍ في شيءٍ، وأمّا الإنغاضُ؛ فهو تحريك الرَّأس خصوصًا، ويكون لغرض التَّعجُّب والاستهزاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؛ أيْ: يُحرِّكون رؤوسهم تعجُّبًا واستهزاءً واستبعادًا للبعث.

المُكْثُ واللُّبثُ والإقامةُ:

اللُّبثُ يكون لمدةٍ مُعيَّنةٍ، والمُكْثُ لمدَّةٍ غيرِ محدودةٍ

يتَّضح الفرق بين ألفاظ (المُكث) و(اللُّبث) و(الإقامة)، في كون الإقامة لفظًا عامًّا لأيِّ بقاء بمكانٍ مُعيَّن، وأمّا (المُكث) و(اللُّبث)؛ فيحملان معنى الإقامة في مكانٍ، غير أنَّ بينهما فرقًا يتجلّى في آيات القرآن الكريم، فنلاحظ أنَّ (اللُّبث) في القرآن يصاحبه ذِكْرُ مدَّة معيَّنة، نحو: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14] ...إلى آخره.

وأمّا (المُكْث)؛ فقد ورد في القرآن دون تحديد مدَّة زمنية – في الغالب – للإقامة، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النَّمل: 22]، وقوله: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: 10].

ويشهد لهذا الفرق بين (المُكث) و(اللُّبث) استخدامهما في

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 309.

الآيتيْن: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النَّبأ: 23]، و﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزُّخرف: 77].

فالآيتان تصفان العذاب في النّار - والعياذ بالله - غير أنَّ الأُولى حدَّدت المُدّة ﴿أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبأ: 23]، فاستخدمت معنى (اللبث)، والثَّانية لم تُحدِّد مدَّة، فاستخدمت معنى (المُكث).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»